القسم الرابع

فى نوادر الخليفة المهدى

أبو دلامة والمهدى

ولد لأبى دلامة ابنة ليلاً فأوقد السراج وجعل يخيط خريطة من شقيق فلما أصبح طواها بين أصابعهِ وغدا بها إلى المهدى واستأذن عليهِ وكان لا يمنعهُ الدخول فأنشده:

لو كـان يقعـد فوق الشمس من كرم
قومٌ لقيـل اقعـدوا يا آل عبـاس
ثم ارتقوا من شعاع الشمس فى درج
إلى السمـــاء فأنتـم أكرم النـاس

قال لهُ المهدى: أحسنت والله أبا دلامة فما الذى غدا بك إلينا؟ قال: ولدت لى جارية يا أمير المؤمنين، قال: فهل قلت فيها شعرًا؟ قال: نعم قلت:

فما ولدتك مريم أم عيسى ولم يكفلك لقمان الحكيمُ
ولكن قد تضمك أم سـوء إلى لباتهـا وأبٌ لئيـمُ

فضحك المهدى وقال: فما تريد أن أعينك بهِ فى تربيتها، قال تملأ هذه يا أمير المؤمنين وانهار إليه بالخريطة بين إصبعيهِ، فقال المهدى وما عسى أن تحمل هذه، قال من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير فمر أن تملأ مالاً، فلما نشرت أخذت عليهِ صحن الدار فدخل فيها أربعة آلاف درهم، فضحك المهدى حتى استلقى على قفاه.

* * *

أبو دلامة والمهدى

وكان المهدى قد كسا أبا دلامة ساجًا فأخذ بهِ وهو سكران فأتى بهِ إلى المهدى فأمر بتمزيق الساج عليهِ وأن يسجن فى بيت الدجاج، فلما كان فى بعض الليل وصحا أبو دلامة من سكره ورأى نفسهُ بين الدجاج صاح يا صاحب البيت فاستجاب لهُ السجان وقال: ما لك يا عدو الله؟ قال: ويلك من أدخلنى مع الدجاج؟ قال: أعمالك الخبيثة أتى بك أمير المؤمنين وأنت سكران فأمر بتمزيق ساجك وحبسك مع الدجاج، قال لهُ: ويلك أوقد لى سراجًا وجئنى بدواة وورق فكتب أبو دلامة إلى المهدى:

أمن صهباءَ صافيـة المراج ... كأن شعاعها لهب السراج
تهش لها النفوس وتشتهيها ... إذا برزت ترقرق فى الزجـاج
أمير المؤمنيـن فدتـك نفسى ... علامَ حبستنى وخرقت ساجى
أقاد إلى السجـــون بغير ذنب ... كأنى بعض عمـــال الخراج
ولو معهم حبست لهـان ذاكم ... ولكنى حبست مع الدجاج
دجاجـات يطيف بهن ديكٌ ... ينادى بالصيـاح إذا يناجى
وقـد كـانت تخبرنى ذنوبى ... بأنى من عذابك غير ناجى
على أنى وإن لاقيـت شرًا ... لخيرك بعد ذاك الشر راجى

ثم قال: أوصلها إلى أمير المؤمنين فأوصلها إليه السجان فلما قرأها أمر بإطلاقه وأدخلهُ عليهِ فقال لهُ: أين بتَّ الليلة أبا دلامة؟ قال: مع الدجاج يا أمير المؤمنين، قال: فما كنت تصنع؟ قال: كنت أقوقى معهنَّ حتى أصبحت، فضحك المهدى وأمر لهُ بصلة جزيلة وخلع عليه كسوة شريفة.

* * *

المهدى وأبو دلامة الشاعر

لما اتصل بالمهدى خبر وفاة والده بمكة المكرمة اشتد منهُ الحزن واغرورقت عيناه بالدموع وقال: إن رسول الله قد بكى عند فراق الأحبة ولقد فارقت

عظيمًا وقلدت جسيمًا وبينما كان المهدى جالسًا للتعزية بوالده والتهنئة بمبايعته دخل عليه أبو دلامة فأنشد:

عيناى واحـدة ترى مسـرورةً بإمامها جذلى وأخرى تطرفُ
تبكى وتضحك مرة ويسوءَها مـا أنكرت ويسرها مـا تعرفُ
فيسوءَها موت الخليفة محرمًا ويسرهـا إذ قـام هـذا الأرأفُ

فأجزل لهُ العطاءَ وكان أول من وصلهُ.

* * *

المهدى والأعرابى

قيل: إن المهدى قعد قعودًا عامًا للناس فدخل رجل فى يده نعل ومنديل فقال: يا أمير المؤمنين هذه نعل رسول الله ﷺ قد أهديتها إليك، قال هاتها فدفعها إليه فقبل باطنها ورفعها على عينيه وأمر للرجل بعشرة آلاف درهم، فلما أخذها وانصرف قال لجلسائه: أترون أنى لم أعلم أن رسول الله ﷺ لم يرها فضلاً عن أن يكون لبسها، ولو كذبناه لقال للناس: أتيت أمير المؤمنين بنعل رسول الله ﷺ فردَّها علىَّ فكان من يصدقهُ أكثر ممن يدفع خبره إذ كان من شأن العامة وأشكالها النصرة للضعيف على القوى فاشترينا لسانهُ وقبلنا هديتهُ وصدقنا قولهُ ورأينا الذى فعلنا أنجح وأرجح.

* * *

كرم المهدى

نزل المهدى بمنزل بعيساباذ لما بناها وأمر أن يكتب لهُ أبناءُ المهاجرين وأبناء الأنصار فكتبوا ودعى بنقبائهم وجلس مجلسًا عامًا لهم ففرق ثلاثة آلاف درهم فأغنى كل فقير وجبر كل كسير وفرج عن كل مكروب، ثم قامت الخطباء ودخل الشعراء فأنشدوه ففرق فيهم خمسمائة ألف درهم، فكثر الداعى لهُ فى الطرقات والبوادى وقام فى هذا اليوم مروان بن أبى حفصة فأنشده:

ما يلمع البرق إلاَّ حنَّ مغتربُ
كأنهُ من دواعى شوقهِ وصبُ
ما أنسَ لا أنسَ غيثًا ظلَّ وابلهُ
علىّ من راحةِ المهدىِ ينسكب
شيئا فما أخلفتنا من مخائله
سحابةٌ صوبها الأوراق والذهب
صدقت يا خير مأمون ومعتمد
ظنى بأضعاف ما قد كنت أحتسب
أعطيت سبعين ألفًا غير متبعها
منًا ولست بمنان بما تهب
قد لاح للناس بالمهدىّ نورُ هدًى
يضىءُ والصبح فى الظلماء يحتجب
خليفةٌ طاهر الأثواب معتصمٌ
بالحق ليس لهُ فى غيره أرب

* * *

المهدى والواقدى

قال الواقدى: دخلت على المهدى بمحبرة ودفتر وكتب عنى أشياء أحدثهُ بها ثم نهض وقال: كن مكانك حتى أعود إليك ودخل دار الحريم ثم خرج متنكرًا ممتلئًا غضبًا فلما جلس قلت: يا أمير المؤمنين خرجت على خلاف الحال التى دخلت عليها، قال نعم دخلت على الخيزران فوثبت إلىَّ ومدت يدها وخزقت ثوبى وقالت لى يا قشاش وأى خير رأيت منك؟ وإنما اشتريتها من نخاس ورأت منى ما رأت وعقدت لابنيها بولاية العهد ويحك وأنا قشاش، قال: قلت يا أمير المؤمنين قال رسول الله ﷺ: «إنهن يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام» وقال: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى»، وقال: «خلقت المرأة من ضلع أعوج إن قومتهُ كسرتهُ»، وحدثته من هذا الباب بكل

ما حضر لي فسكن غيظهُ وأسفر وجههُ وأمر لى بألفى دينار، وقال أصلح بهذه من حالك وانصرفت، فلما وصلت إلى منزلى وافانى رسول الخيزران فقال تقرئك السلام سيدتى وتقول: يا عم قد سمعت جميع ما كلمت بهِ أمير المؤمنين فأحسن الله جزاءك وهذا ألفا دينار إلا عشرة بعثت بها إليك لأنى لم أحب أن أساوى صلة أمير المؤمنين، ووجهت لى بأثواب.

* * *

المهدى وأحد العبيد

أهدى لهُ بعض العبيد عصيدة فاشترى الضيعة التى فيها ذلك العبد والعبد بألف دينار وأعتقهُ ووهبهُ الضيعة وأقدمهُ المهدى بغداد ثم ردهُ المدينة لمنام رآه.

* * *

المهدى والمؤمل

قال المؤَمل بن أميل: قدمت على المهدى وهو بالرى وهو إذ ذاك ولى عهد فامتدحتهُ بأبيات فأمر لى بعشرين ألف درهم فكتب بذلك إلى المنصور وهو بمدينة السلام يخبره فكتب إلى كاتب المهدى أن توجه إلىَّ بالشاعر، فطلبت فلم يقدر علىَّ، وكتب إلى أبى جعفر أنهُ قد توجه إلى مدينة السلام فأجلس المنصور قائدًا من قواده على جسر النهروان وأمره أن يتصفح الناس رجلاً رجلاً فجعل لا يمر بهِ قافلة إلا تصفح من فيها، حتى مرت به القافلة التى فيها المؤَمل بن أميل فتصفحهُ فلما سألهُ من أنت؟ قال أنا المؤَمل بن أميل المحاربى الشاعر أحد زوار المهدى، قال إياك طلبت، قال المؤَمل فكاد قلبى يتصدع خوفًا من أبى جعفر فقبض علىّ وسلمنى إلى الربيع، فدخل على أبى جعفر وقال: هذا الشاعر قد ظفرنا بهِ، قال أدخلوه إلىَّ فدخلت إليه وسلمت عليهِ تسليم مروّع، فرد السلام وقال: ليس ههنا إلاَّ خيرًا أأنت المؤَملُ بن أميل، قلت نعم يا أمير المؤمنين، قال أتيت غلامًا غرًا فخدعتهُ، قلت نعم أصلح الله أمير المؤمنين أتيت غلامًا غرًا كريمًا فخدعتهُ فانخدع، قال فكأن

ذلك أعجبهُ، فقال: أنشدنى ما قلت فيه فأنشدتهُ:

هــو المهـدىُّ إلا أن فيـهِ ... مشابه صــورة القمر المنيرِ
مشابهُ ذا وذا فيما إذا ما ... أنارا يشكلان على البصير
فهذا فى الظــلام سراج ليل ... وهذا فى النهار ضياء نور
ولكن فضل الرحمن هذا ... على ذا بالمنــابر والسـرير
وبالملـك العـزيز فـذا أميرٌ ... وما ذا بالأمير ولا الوزير
ونقص الشهر يحمدُ ذا وهذا ... منيرٌ عنـد نقصـان الشهور
فيا ابن خليفة الله المصفى ... بهِ تعلو مفاخـرة الفخـور
لئن فقـت الملوك وقـد توانوا ... إليك من السهـولة والوعـور
لقــد سبق الملوك أبوك حتى ... بقـوا مــا بين كاب أو حسير
وجئـت مصليًا تجرى حثيثًا ... وما لك حين تجرى من فتور
فقال الناس مـا هذان إلا ... كمـا بين الفتيل من النقير
فإن سبـق الكبيـر فأهل سبق ... لهُ فضـل الكبير على الصغير
وإن بلغ الصغير مـدًا كبير ... فقـد خلق الصغير من الكبير

فقال لهُ المنصور: والله لقد أحسنت ولكن هذا لا يساوى عشرين ألف درهم وأين المال؟ قلت ها هو ذا، فقال يا ربيع امض معهُ فأعطه ألف درهم وخذ منهُ الباقى ففعل الربيع ما أمره المنصور، ثم إن المهدى ولى الخلافة بعد ذلك وولى ابن يونان المظالم فكان يجلس للناس بالرصافة فرفعت إليهِ قصة فلما وصلت إليهِ قصتى ضحك، فقال لهُ ابن يونان أصلح الله أمير المؤمنين ما رأيتك ضحكت من شىء إلا من هذه القصة، فقال نعم هذه رقعة أعرف قصتها، ردوا عليهِ عشرين ألف درهم فردوها إلى فأخذتها وانصرفت.

* * *

جود المهدى

خرج المهدى ذات يوم متنزهًا إلى الأنبار، وبينما هو فى مجلسهِ دخل عليهِ الربيع ومعهُ قطعة من جراب فيهِ كتابة برماد وخاتم من طين عجن بالرماد

وهو مطبوع بخاتم الخلافةُ فقال: يا أمير المؤمنين ما رأيت أعجب من هذه الرقعة جاءنى بها أعرابى وهو ينادى هذا كتاب أمير المؤمنين المهدى دلونى على هذا الرجل الذى يسمى الربيع فقد أمرنى أن أدفعها إليه وهذه الرقعةُ، فأخذها المهدى وضحك وقال: صدق وهذا خطى وهذا خاتمى أفلا أخبركم بالقصة، قلنا: رأى الأمير أعلى منا فى ذلك، قال: خرجت أمس إلى الصيد فى غب سماءٍ فلما أصبحت هاج علينا ضباب شديد وفقدت أصحابى حتى ما رأيت منهم أحدًا وأصابنى من البرد والجوع والعطش ما لا يعلمه إلا الله وتحيرت عند ذلك فذكرت دعاءً سمعته من أبى يحكيه عن أبيه قال إذا أصبح وإذا أمسى: بسم الله وبالله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وقى وشفى وكفى من الحرق والغرق والفرَق والهدم وميتة السوء، فلما قلتها رفع لى ضوء نار فقصدتها فإذا بهذا الأعرابى فى خيمة لهُ يوقد نارًا بين يديه، فقلت أيها الأعرابى هل من ضيافة، قال انزل فنزلت فقال لزوجته هات ذلك الشعير فأتت به فقال اطحنيه فابتدأت تطحنه فقلت له اسقنى ماءً فأتانى بسقاء فيه مذقة من لبن أكثره ماء فشربت منها شربة ما شربت أطيب منها وأعطانى حلسًا لهُ فوضعت رأسى عليه ونمت ثم انتبهت فإذا هو قد وثب إلى شاة فذبحها فإذا امرأتهُ تقول له ويحك قتلت نفسك وصبيتك إنما كان معاشك من هذه الشاة فذبحتها فبأى شىء تعيش، فقلت لا عليك هات الشاة فشققت جوفها واستخرجت كبدها بسكين فى خفى فشرحتها ثم طرحتها على النار فأكلت ثم قلت لهُ هل عندك شىءٌ أكتب فيه، فجاءنى بهذه القطعة، فأخذت عودًا من الرماد الذى كان بين يديه فكتبت لهُ هذا الكتاب وختمتهُ بها الخاتم وأمرتهُ أن يجىء ويسأل عن الربيع فيدفعها إليه فإذا فى الرقعة خمسمائة ألف درهم، فقال لا والله ما أردت إلاَّ خمسين ألف درهم ولكن جرت يدى بخمسمائة ألف درهم ولا أنقص والله منها درهمًا واحدًا ولو لم يكن فى بيت المال غيرها احملوها معهُ، فما كان إلاَّ قليلاً حتى كثرت إبلهُ وصار منزلاً من المنازل ينزلهُ كل من أراد الحج من الأنبار إلى مكة المكرَّمة وسمى مضيف أمير المؤمنين المهدى.

المهدى والمختبئان

لما فرغ المهدى من بناء عيساباذ ركب فى جماعة يسيرة لينظر البلد، فدخلهُ مفاجأة وأخرج من كان هناك من الناس وبقى رجلان خفيا عن أبصار الأعوان فرأى المهدى أحدهما وقد دهش بالعقل فقال من أنت، قال أنا أنا، فقال ويلك من أنت، قال لا أدرى، قال ألك حاجة، قال: لا لا، قال: أخرجوه أخرج الله نفسك، فدُفع فى قفاه، فلما خرج قال لغلام لهُ اتبعهُ من حيث لا يعلم فسل عن أمره ومهنتهِ فإنى أخالهُ حائكًا فخرج الغلام على أثره، ثم رأى الآخر فاستنطقهُ فأجاب بقلبٍ جرىء، ولسان سليط، فقال: من أنت؟ قال: رجلٌ من أبناء رجال دعوتك، قال: من جاءَ بك إلى ههنا؟ قال: جئت لأنظر إلى هذا البناء الحسن فأتمتع بالنظر وأكثر الدعاء لأمير المؤمنين بطول المدة وتمام النعمة ونماء العز والسلامة، قال: أفلك حاجة، قال: نعم خطبت ابنة عمٍ لى فردنى أبوها وقال لا مال لك والناس يرغبون فى المال وأنا بها مشغوفٌ ولها وامق، قال: قد أمرت لك بخمسين ألف درهم، قال جعلنى الله فدائك يا أمير المؤمنين لقد وصلت فأجزلت الصلة ومننت فأعظمت المنة فجعل الله باقى عمرك أكثر من ماضيهِ وآخر أيامك خيرًا من أولها ومتعك بما أنعم بهِ عليك وأمتع رعيتك بك، فأمر أن تعجل لهُ الصلة ووجه بعض خاصتهِ وقال: اسأل عن مهنتهِ فإنى أخالهُ كاتبًا، فرجع الرسولان معًا فقال الأول وجدنا الأول حائكًا، وقال الآخر وجدت الرجل كاتبًا فقال المهدى لم تخف علىَّ مخاطبة الكاتب والحائك.

* * *

المهدى وشعبة الشاعر

كان شعبة شاعرًا متشاغلاً بالعلم لا يكسب شيئًا من الدنيا وكان لهُ إخوة يقومون بأمورهِ، واشترى أحد إخوتهِ من السلطان طعامًا فخسر بهِ فحبس، فقدم شعبة على المهدى وكان لهُ على أخيهِ ستة آلاف دينار، فلما دخل قال:

يا أمير المؤمنين أنشد قتادةُ وسماك بن حرب لأُمية بن أبى الصلت شعرًا فى عبد الله بن جدعان التيمى:

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حياؤُك إن شيمتك الحياءُ
وعلمك بالحقوق وأنت فرعٌ ... لهُ الحسب المهذب والسناءُ
كريم لا يغيره صباحٌ ... عن الخلق الجميل ولا المساءُ
بأرضك كل مكرمة بناها ... بنو تيمٍ وأنت لها سماءُ
إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضه الثناءُ

فقال: لا يا أبا بسطام لا تذكرها قد عرفناها وقضيناها لك ادفعوا إليهِ أخاه ولا تأخذوا منهُ شيئًا.

* * *

المهدى وإبراهيم بن طهمان

كان لإبراهيم بن طهمان جراية من بيت المال فاخرة وكان يفخر بذلك، فسئل يومًا فى مجلس الخليفة، فقال لا أدرى، فقالوا تأخذ فى كل يوم كذا وكذا ولا تحسن مسألةً، فقال إنما أخذت على ما أُحسن ولو آخذ على ما لا أحسن لفنى بيت المال ولا يفنى ما لا أدرى، فأعجب أمير المؤمنين جوابهُ وأمر لهُ بجائزة فاخرة وزاد فى جرايتهِ.

* * *

المهدى وأبو العتاهية الشاعر

قال أشجع السلمى الشاعر المشهور: أذن الخليفة المهدى للناس فى الدخول عليه فدخلنا مع أبى العتاهية فأمرنا بالجلوس، فاتفق أن جلس بجنبى بشار بن برد وسكت المهدى فسكت الناس فسمع بشار حسًا فقال لى: من هذا، فقلت أبو العتاهية، فقال أتراه ينشد فى هذا المحفل، فقلت أحسبهُ سيفعل، قال فأمره المهدى فأنشد:

أتتهُ الخلافة منقادة ... إليهِ تجرر أذيالها

فلم تك تصلح إلاَّ لهُ ولم يك يصلح إلاَّ لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعهُ بناب القلوب لما قبل الله أعمالها

فقال لى بشار: انظر ويحك يا أشجع هل طار الخليفة عن فراشه، قال أشجع: فوالله ما انصرف أحد عن ذلك المجلس بجائزة غير أبى العتاهية.

* * *

obeikandl.com